الفصل الخامس
من أسرار حرف الاختصاص

حقيقة اللام

يقول سيبويه: «ولام الإضافة ، ومعناها الملك واستحقاق الشيء ، ألا ترى أنَّك تقول: (الغلام لك ، والعبد لك) ، فيكون في معنى: (هو عبدك) ، و(هو أخ له) فيصير نحو: (هو أخوك) ، فيكون مستحقًا لهذا ، كما يكون مستحقًا لما يملك ، فمعنى هذه اللام معنى إضافة الاسم» [1].

ولم ينكر سيبويه للام غير هذا المعنى ، لكنَّ غيره ذكر لها معاني كثيرٍ من حروف الجر الأخرى. قال الهروي: «تكون مكان (إلى) ، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، أي: إلى هذا ، وقال ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾، أي: إلى الإيمان. وتكون مكان (على) ، وذلك قولك (سقط الرجل لوجهه) ، أي: على وجهه. قال الله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ، أي: على الأذقان سجدًا ، وقال: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾، أي: على الجبين. وقال الشاعر ، وهو الأشعث الكندي:

تَنَاوَلْتُ بِالرُّمْحِ الطَّوِيلِ ثِيَابَهُ فَخَـرَّ صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ

أي: على اليدين وعلى الفم.

وتكون مكان (من) ، وذلك قولهم: (سمعت لزيد صياحًا) ، أي: من زيد صياحًا. وتكون مكان (في) ، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: في يوم القيامة» [2].

---

(١) الكتاب ٤/ ٢١٧.
(٢) الأزهية في علم الحروف ٢٨٧.

وأرجع المرادي جميع المعاني التي ذُكرت للام إلى معناها الأصلي ، وهو الاختصاص ، فقال: «التحقيق أنَّ معنى اللام في الأصل هو الاختصاص ، وهو معنى لا يفارقها ، وقد يصحبها معانٍ أُخر ، وإذا تُؤمِّلت سائر المعاني المذكورة وُجدت راجعة إلى الاختصاص ، وأنواع الاختصاص متعددة. ألا ترى أنَّ من معانيها المشهورة التعليل؟ قال بعضهم: وهو راجع إلى معنى الاختصاص؛ لأنَّه إذا قلت: جئتك للإكرام، دلَّت اللام على أنَّ مجيئك مختص بالإكرام ، إذ كان الإكرام سببه دون غيره ، فتأمَّل» (١).

وهذا الذي قاله المرادي هو الذي تراه أليق ببلاغة هذا اللسان ، ونبحث عنه فيما خفي من مواقعها ، والتبس بغيره من الحروف ، مُنقِّبين عن دقائق الفروق من خلال ما يهمس به السياق.

***

اللام وحرف الانتهاء

كثيرةٌ هي تلك المواطن التي قيل فيها إنَّ اللام تؤدي معنى انتهاء الغاية ، وتحل محل الحرف الموضوع لها ، ذاهبين إلى أنَّهما يتبادلان مواقعهما.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (يس: ٣٨).

قال ابن قتيبة: «﴿ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾، أي: إلى مستقر لها ،

---

(١) الجنى الداني ١٠٩.

كما تقول: هو يجري لغايته ، وإلى غايته» [1].

وقال الألوسي: «(المستقر لها) ، لَحدٌّ معين تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة ، شُبِّه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره ، من حيث إن في كُلٍّ انتهاءً إلى محل معين ، وإنْ كان للمسافر قرار دونها ، وروي هذا عن الكلبي ، واختاره ابن قتيبة ، والمستقر عليه اسمُ مكانٍ ، واللام بمعنى إلى» [2].

وبتأمُّل سياق الآيات نجدها تتحدث عن آيات الله في كونه ، وترسم صورة حية للحركة الدقيقة المنتظمة لليل والنهار والشمس والقمر ، دون أنْ يختل هذا النظام بعدوان أيٍّ منها على الآخر ، وكأنَّ الله أودع في هذه الأجرام المتحركة من الإلهام ما تدرك به غايتها ، وتسعى لتحقيق هدفها ، وهو ما تعبِّر عنه اللام خير تعبير ، وهذا هو السياق: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ (يس: ٣٧-٤٠).

وإذا كان المفسرون القدامى قد اعتمدوا في تفسير جري الشمس على ما يشاهدونه من الحركة اليومية لدوران الأرض حول محورها أمام الشمس ، ممَّا ينتج عنه اختلاف الليل والنهار ، والحركة السنوية لدوران الأرض حول الشمس ، وما ينتج عنها من اختلاف المشارق والمغارب ، فإنَّ العلم الحديث قد أثبت للشمس حركة حقيقية بسرعة

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٣١٦.
(٢) روح المعاني ٢٣/ ١١.

مخصوصة تقدر بنحو اثني عشر ميلاً في الثانية ، في اتجاه مخصوص في فضاء الله ، هو الجهة التي فيها النجم المسمى «فيفا» ، ومستقرها لايزال أمرًا من أمور الغيب ، وذلك إعجاز علمي جاء به القرآن قبل أنْ يولد علم الفلك الحديث (١).

وتعدية الفعل باللام تنبئ عن غرض خاص رسمه الله للشمس ، وهي تجري باحثة عنه في حركة منتظمة لا تفتر ولا تمل ، ويتناغم مع هذه اللام أختها في قوله «لها» ، حيث لم يقل: «لمستقرها» ، تأكيدًا لخصوصية هذه الحركة وتفرُّدها ، وإيماءً إلى دأبها في السعي من أجله. وأين هذا من حرف الانتهاء المنبئ عن توقف حركتها ببلوغها هذا المستقر؟ إنَّ ذلك يلائم الحديث عن الآخرة ، حين يراد تصوير نهاية الكون ، وبدء عالم آخر يتغير فيه نظام هذا الخلق ، ولا يلائم الحديث عن تصوير حركة الحياة في كون الله.

لذلك جاء الفعل «يجري» تعبيرًا عن حركة الشمس والقمر في أربعة مواضع من مشتبه النظم سوى هذا الموضع ، عُدِّي في ثلاثة منها باللام ، وفي موضع واحد بـــ«إلى».

والمواضع الثلاثة التي عُدِّي فيها باللام هي مواطن الاستدلال على قدرة الله تعالى ، وتوجيه النظر والفكر إلى آياته المشاهدة ، ومنها جريان الشمس والقمر لتحقيق غاية رسمها الله لكل منهما ، دون القصد إلى انتهاء حركتهما ببلوغهما تلك الغاية ، وهي:

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ

(١) انظر الإسلام في عصر العلم ٢٦٦ ـ ٢٦٨.

وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ ﴾(الرعد: ٢) ، وقوله: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ﴾ (فاطر: ١٢ – ١٣).

وقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ ﴾ (الزمر: ٥).

أمَّا الموضع الرابع الذي عُدِّي بـ«إلى» فقد جاء في سياق الحديث عن الآخرة ، وما يقع فيها من بعث وحساب ، وهو ما يؤذن بتوقف حركة هذه الكائنات بعد انتهائها إلى الغاية التي أرادها الله تعالى ، إعلانا ببدء حياة أخرى ونظام كوني آخر ، يكشف عنه قوله تعالى ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ ﴾، لذلك ناسبت «إلى» هذا الموضع ، وهو قوله تعالى: ﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾(لقمان: ٢٨ – ٢٩) ، وقد جاء بعد ذلك قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾(لقمان: ٣٣).

وإذا كان الزمخشريُّ قد نبَّه إلى الفرق بين المعنيين في قوله: «ولكن المعنيين: أعني الانتهاء والاختصاص ، كل واحد منهما ملائم

لصحة الغرض ، لأنَّ قولك: يجري إلى أجل مسمى ، معناه: يبلغه وينتهي إليه ، وقولك: يجري لأجل مسمى ، تريد: يجري لإدراك أجل مسمى ، تجعل الجري مختصًا بإدراك أجل مسمى» [1] ، فإنَّه لم يبيِّن سر اختصاص كُلٍّ بموضعه.

وهو ما كشف عنه بدقة بالغة الخطيب الإسكافي ، حين قال: «إنَّ معنى قوله ﴿يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: يجري لبلوغ أجل مسمى ، وقوله ﴿يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ معناه: لايزال جاريًا حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه ، وإنما خصَّ ما في سورة لقمان بـ(إلى) التي للانتهاء واللام تؤدي معناها؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ جريها لبلوغ الأجل المسمى؛ لأنَّ الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة ، فقبلها ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، وبعدها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ ، فكان المعنى: كُلٌّ يجري إلى ذلك الوقت ، وهو الوقت الذي تكور فيه الشمس ، وتنكدر فيه النجوم ، كما أخبر الله تعالى. وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام إنَّما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق ، وهو قوله ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السموات والأرض ، وابتداء جري الكواكب ، وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية ، وكذلك قوله في

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٧.

سورة الملائكة ، إنَّما هو في ذكر النعم التي بدأ بها في البر والبحر ، إذ يقول ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ ﴾ {وما يستوي البحران} ، إلى قوله ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ {ولعلكم تشكرون يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير} ، فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها ، واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها» [1].

وممَّا قيل فيه بتداخل الحرفين وأدائهما لمعنى واحد تعدّي فعل الهداية بهما ، وقد ورد في القرآن الكريم مُعدًّى بنفسه كقوله ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة: ٦) ، ومُعدًّى بـ«إلى» مثل ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الأنعام: ٨٧) ، فجعلهما ابن قتيبة من تداخل معاني الحرفين. وعلق البطليوسي على ذلك بقوله: «جاز وقوع اللام موقع (إلى) ، ووقوع (إلى) موقع اللام ، لما بين معنييهما من التداخل والتضارع. ألا ترى أنَّ اللام لا تخلو من أنْ تكون بمعنى الملك أو الاستحقاق أو التخصيص ، أو العلة والسبب ، و(إلى) للانتهاء والغاية. وكل مملوك فغايته أنْ يلحق بمالكه ، وكل مستحق فغايته أنْ يلحق بمستحقه ، وكل مختص فغايته أنْ يلحق بمختصه ، وكل معلول

---

(١) درة التنزيل ٣٧٤ ــ ٣٧٥.

فغايته أنْ يلحق بعلته ، فكلها يوجد فيها معنى (إلى) وموضوعها الذي وضعت له» [1].

ونقل ابن منظور: «يقال: هديت للحق وهديت إلى الحق ، بمعنى واحد» [2].

وقال الزمخشريُّ مثله [3] في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ (يونس: ٣٥).

وسبق أنْ قلت: إنَّ الأفعال المتعدية بأكثر من حرف تكتسب دلالات مختلفة يخلعها عليها الحرف الذي تعدَّى به ، فالهداية طبقًا لورودها في القرآن الكريم ذكر لها الشوكاني أربعة معانٍ ، «هي: الإرشاد ، أو التوفيق ، أو الإلهام ، أو الدلالة» [4].

وهذه المعاني يكتسبها الفعل من اتصاله بحرف التعدية ، فهو حين يُعدَّى بـــ«إلى» يدل على الإرشاد وإيصال المهديِّ إلى الغاية المنشودة ، وحين يُعدَّى باللام يدل على التوفيق وتهيئة القلب والنفس للسعي من أجل هذه الغاية ، انبثاقًا من معنى الاختصاص في اللام ، وذلك ما صرَّح به ابن القيم ، فقال: «ففعل الهداية متى عُدِّي بـــ«إلى» تضمَّن الإيصال إلى الغاية المطلوبة ، فأتى بحرف الغاية ، ومتى عُدِّي باللام تضمَّن التخصيص بالشيء المطلوب ، فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين ، فإذا قلت: هديته لكذا ، فُهم معنى: ذكرته له وجعلته له ،

---

(١) الاقتضاب ٢/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٢) لسان العرب ٨/ ٤٦٣٩.
(٣) انظر الكشاف ٢/ ٢٣٦.
(٤) فتح القدير ١/ ٢٣.

وهيَّأته ، ونحو هذا» (١).

فقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ (الأعراف: ٤٣) ، وقوله ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾(الحجرات: ١٧).

توحي اللام فيهما بتوفيق الله للمؤمنين ، وتهيئة نفوسهم وقلوبهم للإيمان والعمل الصالح ، واختصاصهم بهذا الطريق دون سواه من سُبُل الشرّ والغواية.

أما قوله تعالى ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾(النازعات: ١٩) ، وقوله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾(الشورى: ٥٢) ، ففيهما دلالة على إرشادهم إلى طريق الحق والخير ، كما يدل عليه حرف الانتهاء.

وقد أفاد ابن كثير ذاك حين قال بعد أنْ تحدث عن تعدية فعل الهداية بنفسه: «وقد تعدَّى بـــ(إلى) ، كقوله تعالى ﴿ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ، ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾، وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة ، وكذلك قوله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. وقد تعدَّى باللام ، كقول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ ، أي: وفقنا لهذا وجعله أهلاً» (٢).

وأحسب أنَّ القرآن لفتنا إلي هذه النكتة حين خالف بين التعديتين في قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٧.

(يونس: ٣٥) ، حيث عدَّى الهداية المنسوبة إلى الشركاء بـــ«إلى» ، والهداية المنسوبة إلى ذاته العليَّة باللام؛ لأنَّه لا يملك توجيه القلوب وتهيئتها للحق سواه... وهو آية من آيات الإعجاز في الذكر الحكيم.

جاء في كلام الفخر الرازي ما يشير إلى خصوصية الحرفين عند قوله تعالى ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ (الأنعام: ٧٩). قال: «ففيه دقيقة ، وهي أنَّه لم يقل: (وجَّهت وجهي إلى الذي فطر السموات والأرض) ، بل ترك هذا اللفظ وذكر قوله ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي﴾ ، والمعنى: أنَّ توجيه وجه القلب ليس إليه ، لأنَّه متعالٍ عن الحيِّز والجهة ، بل توجيه وجه القلب إلى خدمته وطاعته لأجل عبوديته ، فتركُ كلمة (إلى) هنا ، والاكتفاءُ بحرف اللام ، دليلٌ ظاهرٌ على كون المعبود متعاليًا عن الحيز والجهة» [1].

ومثل هذه الدقيقة كشف عنها الزمخشريُّ في الفرق بين تعدية «أسلم» باللام في قوله تعالى ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (البقرة: ١١٢) ، وبـــ«إلى» في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (لقمان: ٢٢) ، فقال: «فإنْ قلتَ: ماله عُدِّي بـــ(إلى) ، وقد عُدِّي باللام في قوله ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾؟ قلتُ: معناه مع اللام أنَّه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالمًا لله ، أي خالصًا له ، ومعناه مع (إلى) أنَّه أسلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه ،

---

(١) التفسير الكبير ١٣/ ٥٧.

والمراد: التوكل عليه ، والتفويض إليه» [1].

وهذه عادة جار الله في الوقوف على دقائق الفروق بين الحروف ، غير أنَّه لم يكشف لنا عن سرِّ إيثار كل حرف في موضعه ، وما يستوجبه من دواعي السياق وأغراضه.

فآية البقرة جاءت بعد حديث عن النَّسْخ ، وما أثيرَ حوله من جدل استثمره الحاقدون من أهل الكتاب للتشكيك في عقيدة المسلمين ، وزعزعة الإيمان في قلوبهم ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (البقرة: ١٠٦ – ١٠٨) ، فكان حريًّا أنْ يتعدَّى إسلام الوجه باللام المُشْعرة بالانقياد والاستسلام لأمر الله ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

فالإسلام المراد هنا مرحلة «فوق الإيمان ، وهو أنْ يكون مع الاعتراف اعتقادٌ بالقلب ، ووفاءٌ بالفعل ، واستسلامٌ لله في جميع ما قضى وقدَّر ، كما ذكر عن إبراهيم – عليه السلام – في قوله ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾» [2].

أمَّا آية لقمان فقد سُبقت بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٥.
(٢) المفردات ٣٥١.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً ﴾(لقمان: ٢٠).

وسياق كهذا يتجلى فيه الله بنعمه على خلقه ، ويُسخِّر كل ما في الكون لمنفعتهم ، إنَّما يستوجب أنْ يفوِّض المُنْعَم عليه أمره إلى المُنْعِم ، ويتوكل عليه في تدبير شئونه؛ لأنَّه حينئذ مستمسك بحبل متين ، واضعٌ أمره في يد قوي أمين ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾. أرأيت كيف تعانقت «إلى» في مطلع الآية مع «إلى» في مقطعها؟ وكيف يسلم العقلاء أمرهم إلى مَنْ تصير إليه أمورهم؟

وما قاله الزمخشريُّ في الفرق بين «أسلم له» و«أسلم إليه» ، قال مثله في تعدية الوسوسة باللام مرة ، وبـ«إلى» مرة أخرى ، دون أنْ يشير كذلك إلى سرٍّ اختصاص كل حرف بموضعه.

قال: «فإنْ قلتَ: كيف عُدِّي (وسوس) تارة باللام في قوله ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ وأخرى بـ(إلى)؟ قلتُ: وسوسة الشيطان كولولة الثَّكْلى ، ووعوعة الذئب ، ووقوقة الدجاجة في أنَّها حكايات للأصوات ، وحكمها حكم صوت أو جرس ، ومنه: وسوس المبرسم ، وهو موسوس (بالكسر) ، والفتحُ لحنٌ ، وأنشد ابن الأعرابي:

وَسْوَسَ يَدْعُو مُخْلِصًا رَبَّ الْفَلَقْ

فإذا قلتَ: وسوس له ، فمعناه: لأجله ، كقوله: (أَجْرِسْ لَهَا يَا ابْنَ أَبِي كِبَاشِ) ، ومعنى وسوس إليه: أنهى إليه الوسوسة ، كقوله: حدَّث

إليه ، وأسرَّ إليه» [1].

وبالرغم من أنَّ الزمخشريَّ لم يبيِّنْ لنا سرَّ اختصاص «إلى» بآية «طه» ، واللام بآية «الأعراف» ، كما أنني لم أجد عند غيره ممَّن قرأت لهم تعليلاً لذلك ، فإنَّني أجد من دواعي السياق وأغراض النظم ما يتطلب كُلاً منهما في موضعه ، وإليك سياق الآيتين ، ففي سورة الأعراف ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾» (الأعراف: ١٩-٢١).

ففي هذا السياق لا نجد تحذيرًا صريحًا إلى آدم من إغراء إبليس ، ممَّا جعل الشيطان يتسلَّل إلى أذن آدم مدعيًا النصح له والحرص عليه ، وهو ما يستدعي اللام المُشْعرة باختصاصه بهذا النصح ، وهو ما تأكد في قَسَمه.

أما آية «طه» فقد جاءت بعد أنْ حذَّر الله تعالى آدم تحذيرًا صريحًا بعدم الاستماع إلى إبليس ، وكشف له عن عداوته له ولزوجه ، ولما ينتويه من إخراجهما من الجنة ، فلم يعد هناك مبررٌ لدخول إبليس على آدم في صورة الناصح المخلص ، كما لم يعد هناك مبررٌ لاستماع آدم له ، ومن ثم فقد جاءت «إلى» موحية بأنَّ الشيطان قد احتال بوسائل خدَّاعة لإيصال وسوسته إلى آدم ، ونجح في الوصول إلى هدفه. ولنستمع إلى هذا السياق: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٥٦.

فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴾(طه: ١١٧ – ١٢٠).

وممَّا يؤيد ما قلتُه أنَّ آية «الأعراف» جعلت الوسوسة لآدم وزوجه ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ﴾، وآية «طه» قصرت الوسوسة على آدم ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾ ، ولا مانع أن يكون إبليس قد وصل بإغوائه إلى آدم عن طريق زوجه ، ومن هنا لم يقل: «وسوس له» ، فكأنَّ وسوسته كانت في أذن حواء ، ثم انتهت إلى آدم. وجمعهما في سورة الأعراف من باب ما انتهت إليه محاولته من مشاركتهما فيما صارا إليه.

وممَّا قيل فيه بتداخل معنى الحرفين ما جاء من مادة السمع مُعدَّى باللام و«إلى» ، فذهب البعض إلى أنَّ الأصل تعدية السمع بـ«إلى» ، وما جاء منها باللام فهو بمعنى حرف الانتهاء ، مثلما قال السيوطي في قول المُصلِّي «سمع الله لمن حمده»: معناه: استمع إليه [1] ، وما نقله الألوسي من جواز أنْ تكون بمعنى «إلى» [2] في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾(الأعراف: ٢٠٤).

ويتتبُّع ما ورد من هذه المادة مُعدَّى باللام في الذكر الحكيم وجدتها تدل على إيثار المسموع بالقبول ، واختصاصه بالاستجابة والانقياد له ، وهو ما تكتسبه من معنى الاختصاص في اللام ، كما في الآية السابقة ، وكما في قوله تعالى خطابًا لموسى – عليه السلام – : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ

(١) انظر همع الهوامع ٢/ ٣٢.
(٢) روح المعاني ١٠/ ١١٢.

فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾(طه: ١٣) ، وقوله وصفًا للمنافقين بالانقياد والتبعية: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ (المائدة:٤١)، وقوله في وصف ضعاف الإيمان الذين يستجيبون لفتنة المنافقين ويتأثرون بها ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾(التوبة: ٤٧) ، كما فسره قتادة وابن إسحاق وجماعة: «وفيكم أناس من المسلمين يسمعون قولهم ويطيعونهم» (١).

أما قول المُصلِّي «سمع الله لمن حمده» ، فإنَّ اللام فيه تدل على قبول الله حمده وإجابته له. قال ابن الأنباري: «وقولهم: سمع الله لمن حمده ، قال أبوبكر: معناه: أجاب الله مَنْ حمده ، والله سامع على كل حال» (٢).

وتتبَّعت كذلك ما تعدَّى من هذه المادة بـ«إلى» فوجدت أنَّها تجيء فيما يدل على وصول المسموع إلى الأذن ، وانتهاء الكلام إليها ، دون الاستجابة له ، وقبول العمل بمقتضاه ، وهو ما لا يؤدَّى بغير حرف الانتهاء ، كقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾(الأنعام: ٢٥) ، وقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ٤٢) ، وقوله ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ (محمد: ١٦) ، وقوله ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾ (الإسراء: ٤٧).

أمَّا قوله تعالى: ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾

---

(١) السابق ١٠/ ١١٢.
(٢) الزاهر في معاني كلمات الناس ١٥٤.

(الصافات: ٨) ، فقد أخبر فيه القرآن بمنعهم عن الوصول إلى السماء والتسمُّع إلى خبرها ، بما رصده الله لهم من الشُّهب الحارقة تكريمًا لبعثته – عليه السلام.

وهذا كل ما جاء مُعدًّى بـــ«إلى» في الكتاب المجيد ، وجميعه يدل على انتهاء الكلام إلى الآذان دون أنْ يتجاوزها إلى القبول به والاستجابة له.

وقد جاء من مشتبه النظم مغايرًا فيه تعدية الفعل بين الحرفين ، قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ﴾ (الأعراف: ٥٧) ، وقوله جل شأنه ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ (فاطر: ٩) ، فجعل المرادي تعدِّي فعل السقي باللام في الآية الأولى من قبيل تعديه بـــ«إلى» ، على أنَّ اللام تدل على انتهاء الغاية كما دلت عليه «إلى».

ولم أجد لأحد تفسيرًا لهذه المغايرة ، وأثرها في بلاغة النظم الحكيم ، غير ما قاله الغرناطي ذاهبًا إلى أنَّه من قبيل التناسق اللفظي ، حيث إن آية «الأعراف» جاء فيها الفعل غير مسبوق بفاء التعقيب ، وجاء بعد الفاء في آية «فاطر» ، فقابل الإيجاز في الأولى بالإيجاز ، مؤثرًا اللام وهي على حرف واحد ، وقابل الإسهاب بالإسهاب في الثانية، فجاء بـــ«إلى» وهي على ثلاثة أحرف (١).

وقد حاولت جهدي أنْ أصل إلى غرض النظم الحكيم من هذه المغايرة ، غير مجرد التناسق اللفظي ، فهداني الله إلى أنَّ آية

(١) انظر ملاك التأويل ١/ ٣٨١ ـ ٣٨٢.

«الأعراف» جاءت في سياق يستدعي إرسال الله تعالى الرياح لسقي قوم استجابة لدعائهم وصلاحهم ، بين يدي رحمته ، وكأنه يقول: إنني أمسك الرياح والماء عمَّن أشاء فأهلكهم بمعاصيهم ، وأرسلها رحمة بالصالحين الضَّارعين من عبادي ، وهذا سياق الآيات:

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ٥٥ – ٥٧).

فتأمَّل هذه الزيادة ﴿ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ ، ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾، وما يحيط بها من فيوضات الرضا والرحمة، وهو ما خلت منه آية «فاطر» ، حيث وقعت في سياقٍ ملتهب بالوعيد والتهديد للكافرين والضالين من منكري البعث ، وكأنما جاءت لإثبات قدرة الله تعالى على إحياء خلقه ، ووصول يد القدرة الإلهية إلى كل ميت يظن استحالة جمع أشلائه ، وبعث الحياة فيه ، كما تصل الرياح الحاملة للسحاب بإذن الله فتُنزل ماءها في أي مكان من أرض الله ، تشاء حكمته أنْ يحييه بعد طول موات ، فجاءت «إلى» مشيرة إلى نهاية رحلة الرياح ونهاية موت الأرض لتبدأ ببعثها حياة أخرى ، كما يحدث للإنسان حين يحييه الله بعد طول رقاد في الوقت الذي يأذن الله فيه بنهاية الدنيا. وليس هناك حرف يبرز هذا الغرض ، ويستجيب لهذا الداعي غير حرف الانتهاء. واستمع إلى همسه وما يشي به في سياقه ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا

﴿ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ (فاطر: ٨-٩).

فأين هذا السياق من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ ﴾ ، ممَّا جاء في سياق آية «الأعراف»؟ إنه إعجاز في كلام يتناسب مع إعجاز القدرة.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ (الزلزلة: ٤-٥) ، يقول أبو البقاء العكبري: «ولها بمعنى إليها ، وقيل: أوحى يتعدى باللام تارة وبـــ(على) أخرى» [١].

وإلى مثله ذهب الزمخشري[٢] وجمهور المفسرين. وذكر أبو حيان وجهين آخرين تفسيرًا للتعدّي باللام فقال : «وعُدّي (أوحى) باللام لا بـــ(إلى) ، وكان المشهور تعديتها بـــ(إلى) ، لمراعاة الفواصل. قال العجاج يصف الأرض:

أَوْحَى لَهَا القَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ   وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ

فعدَّاها باللام. وقيل: الموحى إليه محذوف ، أي: أوحى إلى ملائكته المصرّفين أنْ تفعل في الأرض تلك الأفعال ، واللام في (لها) للسبب ، أي: من أجلها ، ومن حيث الأفعال فيها» [٣].

ومع أنَّ رعاية الفواصل لون من الجمال الموسيقي المؤثر ، وهو لا شك ممَّا يقصد إليه النظم الكريم أخذًا بالآذان والقلوب ، إلا أنَّه لا

---
(١) إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ٢٩٢.
(٢) انظر الكشاف ٤/ ٢٧٦.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٥٠١.

يفسر اللفظ ولا يستكرهه لتحقيق هذا الغرض ، فلابد أنْ يكون للام هذه ما ليس لـــ«إلى» في موضعها ، كما أنَّ القول بالحذف يبدو فيه التكلُّف، ويذهب معه بسط القدرة في تسخير الجماد إذعانًا لأمر الله واستجابةً لندائه ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾(فصلت: ١١) ، كما أنَّ الحذف لا دليل عليه.

وقد ذهب الراغب إلى رأي طريف ، مؤدَّاه أنَّ الوحي هنا وحي تسخير ، وأنَّ اللام تعين على تحقيق هذا الغرض ، فقال: «وقيل: قد تكون اللام بمعنى (إلى) في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ ، وليس كذلك؛ لأنَّ الوحي للنحل جعل ذلك بالتسخير والإلهام ، وليس ذلك كالوحي إلى الأنبياء ، فنبَّه باللام على جعل ذلك الشيء له بالتسخير»[1].

غير أنَّه مما يكدر عليه أنَّ الوحي إلى النحل ، الذي جعله الراغب تسخيرًا ، مُعدًّى بـــ«إلى» وليس باللام ، ممَّا لا يجعل وحي التسخير مخصوصًا باللام وسر التعدية بها.

ويمكن القول بأنَّ الوحي إلى النحل ضرب من الإلهام؛ لأنَّ المأمور به شيء نافع لها ، ووسيلة للحفاظ على حياتها بقدر ما هو نفع لغيرها ، وليس تسخيرًا كما هو واضح من قوله ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾(النحل: ٦٩)، بخلاف أمر الأرض بأنْ تخرج أثقالها ، وأنْ تُحدِّث بأخبارها ، فذلك هو

---

(١) المفردات ٦٣٩.

أمر خاصٌ لها على سبيل التسخير ، وهو ما يفسر مجيء هذا الفعل متعديًا باللام وحده في القرآن كله ، من بين ما يقرب من سبعين موضعًا جاءت متعدية بـــ«إلى».

ومن المواضع التي قيل فيها بأنَّ اللام بمعنى «إلى» قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾(آل عمران: ١٩٣).

قال الشوكاني: «﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ بمعنى (إلى) ، وقيل إن ﴿يُنَادِى﴾ يتعدَّى باللام وبـــ(إلى) ، يقال: ينادي لكذا ، وينادي إلى كذا ، وقيل: اللام للعلة ، أي لأجل الإيمان» [١].

وذهب الزمخشريُّ إلى أنَّ فعل النداء يُعدَّى باللام و«إلى» على السواء ، لصحة وقوع معنى الحرفين معه. قال: «ويقال: دعاه لكذا ، وإلى كذا ، وندبه له وإليه ، وناداه له وإليه ، ونحوه: هداه للطريق وإليه، وذلك أنَّ معنى انتهاء الغاية ومعنى الاختصاص واقعان جميعًا» [٢].

لكنه لم يقل لنا لِمَ آثر حرف الاختصاص هذا ، وفي قوله تعالي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الجمعة: ٩).

وآثر حرف الانتهاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ (المائدة: ٥٨).

---

(١) فتح القدير ١/ ٤١١.
(٢) الكشاف ١/ ٤٨٩.

وقد حاولت العثور على تعليل لذلك في مظانّه فلم أجده ، فاجتهدت رأيي انطلاقًا من أنَّ الفعل المُعدَّى بالحروف المتعددة لابد أنْ يكون له مع كل حرف معنى زائد على ما أشار إليه ابن القيم [1].

وأرى – والله أعلم – أنَّ فعل النداء أو الدعاء حين يُعدَّى بـ«إلى» يكون الغرض حث المنادى على القصد إلى الشيء والانتهاء إليه ، على حدّ ما أشار إليه الراغب: «والدعاء إلى الشيء الحث على قصده» [2] ، وحين يُعدَّى باللام يكون الغرض تخصيص النداء ، والدعوة بالشيء المطلوب ، إظهارًا للاهتمام به ، ووفور الرغبة في تحقيقه ، والسعي له، وهذا الفرق الدقيق هو الذي من أجله جاءت «إلى» في قوله تعالى ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ ، وهو نداء عام لكل سامع ، وإلى عموم الصلوات ، حثًّا على القصد إليها ، والاتجاه إلى مكان إقامتها في مساجد الله تحصيلاً لفضل الجماعة فيها. وحين كان النداء للمؤمنين ، ولصلاة خاصة في يوم خاص ، هي صلاة الجمعة ، ولها في الشريعة مكانة خاصة جاءت اللام تعبيرًا عن اختصاصها بالنداء ، والسعي من أجلها ، رغبةً في الحصول على فيوض الرحمة والمغفرة ، ممَّا أعدَّه الله للمؤمنين في هذه الصلاة ، فقال جل شأنه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وممَّا يشهد لما نقوله وقوع «إلى» في قوله ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ،

---

(١) انظر بدائع الفوائد ٢/ ٢١.
(٢) المفردات ٢٤٥.

فهو حثٌ على قصد الصلاة والإسراع إلى تلبيتها ، ولو جاءت «إلى» بدلاً من اللام ، فقيل: «نودي إلى الصلاة» لكان قوله ﴿ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ بمثابة تكرار الدعوة إليها ، ومجيء اللام أولاً ، و«إلى» ثانيًا ، فيه جمع بين الغرضين: حث على القصد إلى الصلاة ، وزيادة اختصاص واهتمام بالسعي لصلاة الجمعة ، وإشعارًا بما لها من مزيد الفضل ، وعظيم الشرف ، ولعل تذييل الآية باللام في قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ممَّا يؤكد هذا الغرض.

ومثل هذه النكتة يمكن الوقوع عليها في تعدية الدعاء بـ«إلى» واللام في قوله تعالى ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ (غافر: ٤١ – ٤٢).

أترى مجيء فعل الدعاء متعديًا بـ«إلى» أربع مرات: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾، ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ ، ﴿ تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾، ومرة واحدة باللام في ﴿ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ ﴾؟ أترى هذا تنويعًا وتفننًا في الأساليب فحسب؟

وإذا كان كذلك فلِمَ غوير باللام في موضع واحد من بين خمسة مواضع ، والاعتدال في المغايرة يقتضي اقتسام المواضع أو تقاربها؟

وهل يُكتفى في نظم معجز بالقول إنَّ «دعا للشيء» و«إليه» واحد؟

إنَّ مؤمن آل فرعون حين دعا قومه إلى النجاة إنَّما كان يحاول استنقاذ قومه من الهلاك ، والأخذ بأيديهم إلى مواطن النجاة ، والبلوغ بهم إلى صراط العزيز الحميد ، حتى إذا ما وصل بهم إليه ، ووضع أقدامهم على أوَّله ، تولاهم الله تعالى بتوفيقه وهدايته ، وهذا موضع «إلى».

والكافرون من قومه كان جُلُّ همهم حين يدعونه إلى النار أنْ يعدلوا به عن الطريق الذي سلكه في الإيمان بالله إلى طريقهم ، وأنْ يحوِّلوه إلى دينهم ، ويعودوا به إلى ملتهم على طريق جهنم ، وليس للنار فضل ، ولا فيها نفع يدعى له ، فأيُّ نفور ونُبُوٍّ عن الغرض هذا الذي تجده في قولك «وتدعونني للنار» ، وهو ما عدل عنه النظم الحكيم، أمَّا قوله تعالى على لسان المؤمن ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ ﴾ ففيه إشعار بتزيين الكفر له ورغبتهم الشديدة لتحقيق هدفهم ، والسعي من أجله وهو ما يستدعي اللام ويستوجبها.

***

اللام ومعنى الاستعلاء

من المواضع التي التبست فيها تعدية الفعل باللام و«على» ، وكشف الزمخشريُّ عن الفرق فيها بين الحرفين ، وما يكسبه الفعل من معنى الحرف الواصل له ، قولُه تعالى ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ (مريم: ٦٤ – ٦٥) ، وقولُه: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (طه: ١٣٢). قال الزمخشريُّ تعليلاً لتعدِّي

«اصطبر» في الآية الأولى باللام: «فإنْ قلتَ: هلا عُدِّي (اصطبر) بـ(على) التي هي صلته ، كقوله تعالى ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾؟ قلت: لأنَّ العبادة جُعلت بمنزلة القِرْن في قولك للمحارب: (اصطبر لقِرْنك) ، أي: اثبت له فيما يورد عليك من شداته ، أريد أنَّ العبادة تورد عليك شدائد ومشاق ، فاثبت لها ولا تهن ، ولا يضق صدرك عن إلقاء عداتك من أهل الكتاب إليك الأغاليط ، وعن احتباس الوحي عليك مدة ، وشماتة المشركين بك» [1].

ولم يشر الزمخشريُّ إلى سرِّ اختصاص كل حرف بموضعه ليدل على الغرض الذي كشف عنه ، وليس ذلك بالعسير؛ لأنَّ الآية التي عُدِّي فيها الفعل باللام كان الأمر فيها بالاصطبار للعبادة بشتى ضروبها العقدية والعملية ، وما يستتبع ذلك من جهاد وتضحيات ، ممَّا يتطلب الثبات والإعداد الخاص لمواجهة أعداء الدين ، بخلاف آية «طه» ، فإنَّ الأمر بالاصطبار خاص بالصلاة ، وهو لا يتطلب غير مغالبة النفس في طلبها للراحة ، وركونها إلى الانشغال بالدنيا ، وليس ذلك ممَّا يحتاج إلى الثبات له ، ومواجهته بقدر ما يحتاج إلى التغلب على هوى النفس.

وتعدَّى العكوف باللام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٥١ – ٥٢)، كما تعدَّى بـ«على» في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ (الأعراف: ١٣٨).

---

(١) الكشاف ٢/ ٥١٧.

فاعتبر البعض ذلك من دلالة اللام على معنى «على» ، إذ الأصل في «عكف» أنْ يتعدَّى بـــ«على» ، لا باللام [1].

وأرى أنَّ اللام عدل إليها النظم للدلالة على أنَّ قوم إبراهيم لم يكتفوا بعبادتها ، وإنَّما تحلَّقوا حولها للدفاع عنها ، ومقاومة مَنْ يخرج عن عبادتها ، وأخلصوا أنفسهم لحرب مَنْ يعاديها ويتطاول عليها ، والترصُّد لمن يسيء إليها ، وذلك يأتلف مع زيادة اللام في قوله بعدها {قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين} (الأنبياء: ٥٣) ، مع أنَّ «عابدين» ممَّا يتعدَّى بنفسه ، ممَّا يدل على وفور رغبتهم في عبادتها ، والثبات لمن يحاول النيل منها.

أما قوله تعالى: ﴿ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ فقد أريد وصف هؤلاء القوم بانكبابهم على عبادتها ، ولزومهم لها ، دون قصد إلى ما أوحت به اللام في الآية السابقة.

وقد تعدَّى السلام في القرآن بـــ«على» تارةً ، كقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾(الزمر: ٧٣) ، كما تعدَّى باللام في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ (الواقعة: ٩٠- ٩١).

فكشف ابن القيم عن سرِّ المغايرة في هذا التعدِّي بما لا مزيد عليه: «فاعلم أنَّ لفظ سلمت عليه ، وصليت عليه ، ولعنت فلانًا ، موضوعها ألفاظ هي جملٌ طلبية ، وليس موضوعها معاني مفردة ، فقولك: سلمت، موضوعه قلت: السلام عليك ، وموضوع صليت عليه ، قلت: اللهم صل

---

(١) انظر روح المعاني ١٧/ ٥٩.

عليه ، أو دعوت له ، وموضوع لعنته ، قلت: اللهم العنه... وإذا ثبت هذا فقولك: سلمت عليه ، أي: ألقيت عليه هذا اللفظ ، وأوضعته عليه ، إيذانًا باشتمال معناه عليه ، كاشتمال لباسه عليه ، وكان حرف (على) أليق الحروف به فتأمَّله ، وأمَّا قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ ، فليس هذا سلام تحية ، ولو كان تحية لقال: فسلام عليه ، كما قال: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ ﴾، ولكن الآية تضمَّنت ذكر مراتب الناس وأقسامهم عند القيامة الصغرى حال القدوم على الله ، فذكر أنَّهم ثلاثة أقسام: مُقرَّبٌ ، له الروح والريحان وجنة النعيم ، ومُقتصِدٌ من أصحاب اليمين ، له السلامة فوعده بالسلامة ، ووعد المقرب بالغنيمة والفوز ، وإنْ كان كل منهما سالمًا غانمًا ، وظالمٌ بتكذيبه وضلاله ، فأوعده بنُزُلٍ من حميم وتصلية جحيم ، فلمَّا لم يكن المقام مقام تحية ، وإنما هو مقام إخبار عن حاله ، ذكر ما يحصل له من السلامة» (١).

وهو نفس الفرق بين قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾(آل عمران: ٨٧) ، حيث أريد انصباب اللعنة عليهم ، وشدة غضب الله النازل بهم ، فعُدِّيت اللعنة بحرف الاستعلاء ، وبين قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾(الرعد: ٢٥) ، حيث تعدَّت اللعنة باللام إيحاءً بثبوتها وحصولها واستحقاقهم لها ، كما ثبتت الرحمة والجنة للفريق المقابل لهم فيما حكته الآيات السابقة ﴿ وَٱلَّذِينَ

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ١٤٦.

صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾(الرعد: ٢٢).

وذهب كثير من النُّحاة والمفسرين إلى جعل اللام في قوله ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾(الإسراء: ٧) ، بمعنى «على» ، حملاً على نظائره ، مثل قوله ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾، وقوله ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾؛ لأنَّ اللام من شأنها أنْ تأتي دالةً على النفع ، ومن شأن «على» أنْ ترمز إلى الضرر والشدة ، فلمَّا خولف ذلك في هذه الآية قيل إنَّ اللام بمعنى حرف الاستعلاء ، كما ذهب إليه السيوطي وابن الجوزي وغيرهما [1].

وفي نظم الآية ما يستدعي هذه اللام ، ويرجِّح معنى الاختصاص فيها ، حيث قصَّت الآيات قبلها ما قضاه الله على بني إسرائيل من الإفساد في الأرض مرتين ، وكيف عاقبهم الله تعالى على إفسادهم للمرة الأولى ، وحذَّرهم مغبَّة العودة إلى الإفساد للمرة الثانية ، وما يترتب عليه من عقاب يستحقونه جزاء ما عملوا ، وحتى لا يتوهم بنو إسرائيل، لكثرة ما أنعم الله به عليه ، وفضَّلهم على غيرهم ، أنَّ لله تعالى في طاعتهم حاجة ، وأنَّهم – كما يدَّعون – أبناءُ الله وأحباؤه ، جاءت اللام لتدلَّ على أنَّ إحسانهم وإساءتهم لأنفسهم ، لا ينتفع بأعمالهم ولا يُضر بها غيرهم ، فهي لام الاستحقاق والاختصاص ، وليست بمعنى «على»، وهو ما رجَّحه أبوالبقاء: «وقيل: هي على بابها ، وهو الصحيح؛ لأنَّ

---

(١) انظر الإتقان ١/ ١٧٠، ومنتخب قرة العيون النواظر ٢١١، وإملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ٨٨.

اللام للاختصاص ، والعامل مختص بجزاء عمله؛ حسنة وسيئة» [1].

ولننظرْ كيف جسَّدت اللام عقيدة المسلم ، ورؤيته الخاصة إلى الحياة والموت ، والانتصار أو الشهادة في قوله تعالى: ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ﴾ (التوبة: ٥٠ – ٥١).

فإنَّ اللام في قوله﴿ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾تكشف لنا عن أعماق النفس المؤمنة ، وهي تستقبل السَّراء والضَّراء باعتبارهما خيرًا ساقه الله تعالى؛ فالمؤمن إنْ أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له ، وإنْ أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له ، وإذا كان النصر والغنيمة مُحبَّبين إلى المسلم في دنياه ، فإنَّ الشهادة ولقاء الله تعالى أحبُّ إليه في أُخراه ، لذا جاء رد المسلم على المنافقين بما هو صريح في أنَّ الموت في سبيل الله – وهو الذي يراه المنافق بلاءً ومصيبة – يراه المؤمن إحدى الحسنيين ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾.

أرأيت لماذا عدل النظم الكريم إلى اللام ، وكيف نهضت بالكشف عن عقيدة المسلم في استقباله لقضاء الله ، وكيف يفسد هذا الغرض باستخدام «على» المُشْعرة بالضرر ، وما يستتبعه من ضيق الصدر وانقباض النفس ، في حين يقع ذلك على المؤمن موقع الرضا والتسليم؟

أرأيت كيف صحَّح الله تعالى النظرة إلى القتال في سبيل الله ،

---

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ٨٨.

ونزع الخوف من قلوب المؤمنين ، وحوّل ما تكرهه النفس وتعافه إلى شيء مُحبَّب إليها ، تتطلع إليه وتتمناه.

إنَّ القرآن حين قال في سورة البقرة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾، وجاء بـ«على» ، إنَّما كان يعبِّر عن طبيعة النفس قبل أنْ يصوغها الإسلام صياغته الخاصة ، ويبنيها بناءً جديدًا ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ، فإذا بهذه النفوس تمتلئ يقينًا بهذا الخير ، فتقدم عليه إقدام المحب له الحريص عليه.

وإنِّي لأحسُّ مثل هذه النكتة في العدول إلى اللام في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ ، إذ لم يقل «فرض الله عليه» ، إشعارًا بأنَّ كل ما يوجبه الشرع هو خير للمؤمن ، ونفع له ، وليس فيه ما يسوء أو يضر ، وقد جاءت هذه الآية عقب قوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(الأحزاب: ٣٦)، وما تلاه من الحديث عن زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش ، وما اكتنفه من تردد زينب [1] وأخيها في هذا الزواج ، وإيذاء زينب لزيد بعد زواجهما بالتعالي عليه ، ثم ما أعقبه من زواج الرسول بزينب بعد طلاقها ليقضي الله على عادة التبني ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ (الأحزاب: ٣٧) ، فما فرض الله لنبيه هو خيرٌ له ، وللمسلمين جميعًا ، دفع به الحرج عنهم ، وصحَّح به أوضاعًا مختلَّة ، وقضى به على نظم

(١) انظر محاسن التأويل ١٣/ ٢٦١.

مجحفة.

وهذه واحدة من لطائف النظم الحكيم ، جاءت اللام فيها كاشفةً عن دخائل النفس المؤمنة ، حتى وإن بدا ظاهرها – بحكم ما خلعته الطبيعة والبيئة عليها – مخالفًا لما تُكنُّه من تقدير وإجلال. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ (الحجرات: ٢).

فإنَّ المؤمنين حين كانوا يجهرون بالقول ، ويرفعون أصواتهم عند رسول الله ، كانوا يستجيبون لما في طباعهم من بداوة ، وما تركته البيئة القاسية في نفوسهم من فظاظة وغلظة ، دون قصد الإساءة إلى الرسول – عليه السلام – أو الاستعلاء عليه ، فجاء القرآن ليُعلِّمَهم آداب الحديث في حضرة الرسول ، دون أنْ يطعنهم في إيمانهم ، بدليل تصدير الآية بنداء المؤمنين ، وختمها بقوله ﴿ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ ، فالعدول إلى اللام هو شهادة لهم بأنَّ ما حدث منهم من رفع الصوت والجهر بالقول لم يقصدوا به إيذاء الرسول أو الاستعلاء عليه ، وتفسير ابن قتيبة لهذه اللام بـ«على» [1] ، وعَدُّ ذلك من تناوب الحروف ، مُفوِّت لذلك الغرض الذي أحسن أبوحيان الكشف عنه حين قال: «ولم يكن الرفع والجهر إلا ما كان في طباعهم ، لا أنَّه مقصود بذلك الاستخفاف والاستعلاء؛ لأنَّه كان يكون فعلهم ذلك كفرًا ، والمخاطبون مؤمنون»[2].

وهذا قوله تعالى: ﴿ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٥٦٩.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٠٦.

يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾(الإسراء: ١٠٧) ، وهو ما اتخذه النُّحاة والمفسرون دليلاً على مجيء اللام بمعنى على [١]؛ لأنَّه «جرت العادة بأنْ يقال: سقط على رأسه ، وعلى صلاه ، أو قفاه ، وإنَّما جاز استعمال اللام ها هنا؛ لأنَّه إذا سقط على عضو من أعضائه فقد حصل التقدم لذلك العضو على كل ما تبعه من بقية الأعضاء ، فإذا قال: سقط لفيه ، فكأنَّه قال: سقط مقدمًا لفيه» [٢].

وفسَّر الزمخشريُّ اللام بما يدل على احتفاظها بمعناها من الاختصاص: «فإنْ قلتَ: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذ قلت: خرَّ على وجهه وعلى ذقنه ، فما معنى اللام في: خرَّ لذقنه ولوجهه ، قال:

فَخَرَّ صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ؟

قلتُ: معناه: جعل ذقنه ووجهه للخرور ، واختصَّه به؛ لأنَّ اللام للاختصاص» [٣].

لكنْ ، ما سرُّ بلاغة هذا الاختصاص؟ وما الفرق بينه وبين الاستعلاء؟

أرى – والله أعلم – أنَّ الساقط على وجهه ، والخارَّ على ذقنه اضطرارًا ، لا يفرق بين عضو يُقدِّمه أو يؤخِّره ، ولا اختيار له في كيفية استقبال الأرض ، فهو ينكبُّ عليها بلا وعي ، بخلاف الساجد لله شكرًا وتعبُّدًا ، فإنَّ له وفور رغبة ، وإقبال نفس ، وهو سجود يشرف الأعضاء ويعتقها من نار جهنم؛ لأنَّه يجلب لها نفعًا وخيرًا. أمَّا الخارُّ

---

(١) انظر الجنى الداني ١٠٠.
(٢) الاقتضاب ٢/ ٢٧٦.
(٣) الكشاف ٢/ ٤٣٠.

على وجهه من سقوط أو غثيان فإنَّما يلحق الضرر بالعضو الساقط عليه ويؤذيه ، ألا ترى كيف عدل النظم إلى حرف الاستعلاء حين قصد إلى التردي والسقوط الأعمى ، والانكباب على الشيء بلا وعي ، فيما نفاه عن عباد الرحمن ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾(الفرقان: ٧٣).

وكم توقفت بحثًا عن غرض النظم الحكيم من المغايرة بين قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾ (العنكبوت: ٨) ، وقوله ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (لقمان: ١٤ – ١٥) ، حيث تعدَّى «جاهد» باللام في الأولى ، وبـــ«على» في الثانية ، مع أنَّهما يشبهان الموضع الواحد.

ولم أجد فيما قرأت تعليلاً سوى ما قاله الغرناطي من أنَّ آية «العنكبوت» بُنيت على الإيجاز ، فناسبها أوجزُ الحرفين وهو اللام ، وآية «لقمان» بُنيت على الإسهاب ، فناسبها أطولُ الحرفين وهو «على». وهو وجه لا يُستبعد في نظم تلتئم حواشيه وأطرافه ، وتتناسب صدوره وأعجازه. قال الغرناطي: «إن قوله في سورة العنكبوت ﴿لِتُشْرِكَ بِى﴾ بتعدية الفعل باللام ، وتعديته في آية لقمان بـــ(على) ، فإنما ذلك لفرقٍ ما بين الآيتين في السورتين ، من حيث بناء آية العنكبوت على الإيجاز ، فناسب ذلك التعدية بـــ(على) ، ولو قدَّرنا

عكس الواقع لما ناسب ، فجاء كُلٌّ على ما يناسب» [1] ، إلا أنَّه لا يمنع ذلك من أنْ يكون هناك غرضٌ يستدعيه المعنى ويتطلبه ، وأراه – والله أعلم – في أنَّ آية العنكبوت جاءت غرضًا مستقلاً في الدعوة إلى الإحسان بالوالدين ، ووجوب طاعتهما ، فيما لا يؤدي إلى معصية الله ، وهذا سرُّ إيجازها ، وجاءت اللام فيها لتعبِّر عن رغبة الوالدين في تمسُّك أبنائهما بدين آبائهم ، وحثهم على ذلك لتحقيق رغبتهم ، ولم تصل مجاهدتهم إلى حد المغالبة والقسر والحمل على الإشراك ، كما هو الأمر في الآية الثانية ، ولذلك اكتفت الآية بالنهي عن طاعتهما فيما دعوا إليه.

أما آية لقمان فقد جاءت معترضة بين وصايا لقمان لابنه ، وذلك يستدعي حثَّ الأبناء على البر بالوالدين وطاعتهما؛ لأنَّها من طاعة الله ، فجاء السياق ملهبًا مشاعر الأبناء ، مستثيرًا عطفهم ، مفجِّرًا دوافع الفضيلة في نفوس تقدِّر الجميل ، وتحسن رده ، مُعدِّدًا ما تحمَّله الأبوان، وخاصة الأم ، وهي التي نزلت الآيات بسببها [2] حينما أضربت أم سعد بن أبي وقاص عن الطعام لحمل ابنها على العودة إلى دين آبائه ، فجاء قوله ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ ، تركيزًا على وجوب الإحسان إليها ، والتغاضي عن زلَّاتها ، ما لم يؤد ذلك إلى معصية لله ، ثم قرن وجوب شكرهما بشكر الله ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

مثل هذا السياق المستدعي لغاية الطاعة يتناغم مع حرف الاستعلاء الدال على وجوب تحمُّلهما ، والصبر على مغالبة الأبوين وقسوتهما في حمل الابن على الشرك ، بحيث يقف الأبناء عند مجرد

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٧٦٤.
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٤٥، وأسباب النزول ٢٣٣.

رفضهم لما تجب فيه طاعة الأبوين ، دون أنْ تدفعهم قسوة الآباء وشدَّتهم إلى عقوقهم. لذا لم تكتف هذه الآية بالنهي عن طاعتهما في الدعوة إلى الشرك ، كما هو الأمر في آية «العنكبوت» ، بل أعقب النهيَ أمرٌ بإحسان صحبتهما في الدنيا ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، ومن ثم فإنَّ حرف الاستعلاء هو من روائع الإعجاز في النظم الحكيم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (الكهف: ١٠٠). يقول أبوحيان: «﴿وَعَرَضْنَا﴾ ، أي: أبرزنا جهنم يومئذ ، أي يوم إذ جمعناهم. وقيل: اللام بمعنى (على) ، كقوله: (فَخَرَّ صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ) ، وأبعدَ مَنْ ذهب إلى أنَّه مقلوب ، والتقدير: وعرضنا الكافرين على جهنم عرضًا» (١).

والراغب في مفرداته يرى أنَّ «عرض» يتعدَّى باللام و«على» ، ويبدو أنَّه يسوِّي بين التعديتين في المعنى. قال: «وعرضت الشيء على البيع ، وعلى فلان ، ولفلان ، نحو قوله تعالى ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ ، وقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ ، وقوله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ ، وقوله ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾» (٢).

وفي معجم الأفعال المتعدية بحرف: «وعرض القوم على السيف: قتلهم به ، وعرضهم على السوط: ضربهم به ، وعرضهم على النار: أحرقهم ، وعرض يعرض عرضًا له أمر: بدا وظهر» (٣).

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٦٥.
(٢) المفردات ٤٩٤.
(٣) معجم الأفعال المتعدية بحرف ٢٣٢.

ومن هذا النص الأخير يبدو أنَّ تعدية فعل العرض بـــ«على» تُفْهِم إلقاءهم في النار وإحراقهم بها ، وأنَّ تعديته باللام تُفْهِم إبراز النار للكافرين ، وهذا هو الذي قصد إليه النظم ، كضرب من التعذيب النفسي قبل إلقائهم في النار ، وتعذيبهم جسديًّا فيها ، واللام دالة على أصل معناها من الاختصاص ، إذ إنَّ هذا العرض خاصٌّ بالكافرين ، ليبصروا بأعينهم التي عميت عن الحق ما كان يجب أنْ يبصروه بقلوبهم في الدنيا، لذلك جاء قوله بعدها ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾.

***

اللام وحرف الوعاء

يرى كثيرٌ من النُّحاة أنَّ الظرفية معنى من معاني اللام ، واستشهدوا لها ببضع آيات من القرآن الكريم ، يمكننا أنْ نلتمس فيها جميعًا غرضًا يهدف إليه النظم ، مع إبقائها على أصل معناها.

من ذلك قوله تعالى ﴿ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾(الفجر: ٢٣ – ٢٤).

قال المرادي وهو يعدّد معاني اللام: «أنْ تكون بمعنى (في) الظرفية ، قالوا كقوله تعالى ﴿ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾، أي: في حياتي ، يعني الحياة الدنيا ، والظاهر أنَّ المعنى: لأجل حياتي ، يعني الحياة الآخرة» [1].

---

(١) الجنى الداني ٩٩.

وما استظهره المرادي هو ما نراه محققًا لأغراض النظم في تجسيد واقع الكافر يوم القيامة ، وما يملأ نفسه حسرةً وندمًا على ما فرط منه في دنياه ، وإغفال العمل لهذه الحياة الأبدية ، التي كتب عليه أنْ يحياها في عذاب دائم ، واللام مع الإضافة – بما فيهما من الاختصاص – تكشفان لك عن أعماق نفس مفعمة بالحزن والأسى على ضياع حياة خاصة غالية ، كان يمكن أنْ تكون سعادة ونعيمًا ، فهو كمَنْ يمسك بولد عزيز عليه أهمله فضاع بين يديه ، وكان هو السبب في ضياعه ، يقلبه ويذرف الدموع أسى وتحسرًا. إنَّها الحياة الآخرة التي أضاعها ، ولم يقدم لها ويسعَ من أجلها ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾. قال النسفي: «﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾، هذه هي حياة الآخرة ، أي: يا ليتني قدَّمت الأعمال الصالحة في الحياة الفانية لحياتي الباقية» (١).

وفي قوله وتعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾(الأنبياء: ٤٧).

قال الألوسي: «واللام في ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بمعنى (في) ، كما نصَّ عليه ابن مالك ، وأنشد لمجيئها كذلك قول مسكين الدارمي:

أُولَئِكَ قَوْمِي قَدْ مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ كَمَا قَدْ مَضَى مِنْ قَبْلُ عَادٌ وَتُبَّعُ

وهو مذهب الكوفيين ، ووافقهم ابن قتيبة ، أي: نضع الموازين في يوم القيامة ، التي كانوا يستعجلونها. وقال غير واحد: هي للتعليل ، أي:

---

(١) تفسير النسفي ٤/ ٣٥٦.

لأجل حساب يوم القيامة ، أو لأجـــل أهله ، وجعلها بعضهم للاختصاص»[1].

وأرى – والله أعلم – أنَّ اللام على معناها من الاختصاص ، والقول بأنَّها للتعليل راجع إلى معنى الاختصاص ، كما حقَّقه المرادي ، وأشرنا إليه من قبل.

وقد تكرَّرت هذه اللام ، وتكرَّر القول بظرفيتها في كثير من مواضع الذكر الحكيم ، كقوله ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (آل عمران: ٩) ، وقوله ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾(آل عمران: ٢٠). وقوله ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ (التغابن: ٩).

وكل هذه المواطن تلوِّح فيها اللام باختصاص اليوم بالجزاء ، وما يستتبعه من الوعيد والتهديد بما ينتظر الكافرين من سوء الحساب؛ لأنَّ هذا اليوم صار علمًا على الحساب ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (ص: ٢٦) ، ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴾(المرسلات: ٣٨) ، ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾(الفاتحة: ٤) ، فجَمْعُ الناس لهذا اليوم إنَّما هو جمعٌ للحساب والجزاء ، لا لذات اليوم.

وهذا موضع لو جِيء فيه بحرف الظرفية لنبا عنه غاية النُّبُوِّ ، ذلكم قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾(إبراهيم: ٤٢) ، حاول أنْ تستبدل حرف الوعاء باللام ، لترى أيَّ جناية على النظم تقع ،

---

(١) روح المعاني ١٧/ ٥٥.

وأيَّ فساد للمعنى يُرتكب باسم «تناوب الحروف». وقل مثل ذلك في قوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، كيف تفقد اللام ما يصحبها من إيحاءٍ باختصاص ذلك اليوم بالحساب والجزاء ، وما يشيعه من الرعب والفزع بنفوس الكافرين والمجرمين ، فهل يستوي أنْ تقول: «وجمعتهم في السجن» ، ألا ترى أنَّ الأول بما ينبئ عنه من الغرض من جمعهم ، المفهوم من اللام ، يملأ نفوس المجموعين رعبًا ، ويجسِّد أمام أعينهم أشباح الخوف من المستقبل ، بخلاف الثاني الذي لا يوحي إليك بغير ميعاد الجمع وزمانه ، فلو قلت: «يوم يجمعكم في يوم الجمع»، ما زدت على أنْ أكدت حقيقة البعث وقيام الساعة. أمَّا اللام فإنَّها تدل على هذا المعنى ، وتزيد عليه التلويح بالحساب والجزاء بما تكشف عنه من غرض الجمع.

وقد أوضح الطبري الفرق بين التركيبين بما يكشف عن سرِّ إيثار اللام في موضعها ، فقال: «فإنْ قال قائل: وكيف قيل: فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ولم يُقل: في يوم لا ريب فيه؟ قيل: لمخالطة معنى اللام في هذا الموضع معنى (في) ، وذلك أنَّه لو كان مكان اللام (في) لكان معنى الكلام: فكيف إذا جمعناهم في يوم القيامة ، ماذا يكون لهم من العذاب والعقاب ، وليس ذلك المعنى في دخول اللام ، ولكن معناه مع اللام: فكيف إذا جمعناهم لما يحدث في يوم لا ريب فيه ، ولما يكون في ذلك اليوم من فصل الله القضاء بين خلقه ، ماذا لهم حينئذ من العقاب وأليم العذاب ، فمع اللام في (ليوم لا ريب فيه) نية فعل ، وخبر مطلوب قد ترك ذكره أخيرًا ، بدلالة دخول اللام في اليوم عليه منه ، وليس ذلك مع (في) ، فلذلك اختيرت اللام ، فأدخلت في (ليوم) دون

(في)» [1].

ومثل هذا الفرق تجده بين قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ، وبين أنْ تقول: «ونضع الموازين القسط في يوم القيامة» ، لما في اختصاص هذا اليوم بإقامة ميزان العدل الإلهي اقتصاصًا من خلقه من إيحاءٍ بأنَّ انتقام الله قد يتأخر ، وأنَّ أخذ الظالمين بسيف عدْله قد يُدَّخر استدراجًا لهم ، وكأنَّه تعالى قد أعد موازينه وادَّخرها لهذا اليوم.

وقد اختار الرَّضيُّ إبقاء هذه اللام على معناها من الاختصاص فيما قيل فيه بنيابتها عن حرف الوعاء: «وقيل: تجيء بمعنى (في) وبمعنى (بعد) ، وبمعنى (قبل) في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ ﴾، أي: في يوم ، وكتبته لثلاث خلون ، أي: بعد ثلاث ، ولثلاث بقين ، أي: قبل ثلاث ، والأولى بقاء الثلاثة على الاختصاص» [2].

***

اللام ومعنى المجاوزة

عرَّف المرادي اللام الدالة على المجاوزة ، والتي قيل إنَّها تنوب فيها عن حرفها الموضوع لها وهو «عن» ، بقوله: «هي الجارَّة اسم من غاب ، حقيقةً أو حكمًا عن قول قائل ، متعلق به ، نحو ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾، أي: عن الذين آمنوا» [3].

---

(١) تفسر الطبري ٣/ ١٤٧.
(٢) شرح الكافية ٢/ ٣٢٩، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
(٣) الجنى الداني ٩٩.

والمتتبِّع لهذه اللام في مواطنها من القرآن الكريم يجد لها مذاقًا خاصًّا يحمل دلالات بلاغية ، لا ينهض بها حرف المجاوزة ، الذي جعلت اللام نائبة عنه.

وقبل أنْ نتعرَّض لهذه المواطن بغية استجلاء أسرارها نسوق طرائق العرب في أداء الحكاية بالقول ، لنرى بعد ذلك لِمَ يعدل القرآن من أسلوب في الأداء إلى أسلوب آخر أليق بموضعه وأبلغ.

يقول الرَّضيُّ: «لك أنْ تقول حكايةً عمَّن قال: زيد قائم ، قال فلان: قام زيد ، ولهذا نرى الكتاب العزيز يُقصُّ فيه عن الأمم المختلفة الألسنة باللسان العربي. وتقول: قال زيد أنا قائم ، وقلت لعمرو أنت بخيل ، رعايةً للفظ المحكيِّ ، ويجوز: قال زيد هو قائم ، وقلت لعمرو هو بخيل ، بالمعنى الأول ، اعتبارًا بحال الحكاية ، فإنَّ زيدًا وعمرًا في حال الحكاية غائبان ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [1].

وننتقل الآن من صحة الأسلوب إلى بلاغة النظم الحكيم في اختيار طريقة في الأداء دون طريقة صحيحة أخرى ، بما يتلاءم والغرض الذي يهدف إليه ، وقد جاء بالطريقة الأخيرة التي قيل فيها إنَّ اللام بمعنى «عن» هذه الآية التي استشهد بها المرادي ، وهي قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ (الأحقاف: ١١)، وقد سبقها حديث عن تكذيب المشركين بآيات الله ، ودعواهم بأنَّ القرآن مفترى وليس من عند الله ، ممَّا استدعى الرد عليهم بقوله: ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن

(١) شرح الكافية ٢/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأحقاف: ١٠).

فكان ردُّ المشركين في الآية موضع الحديث يحمل الاستخفاف بالمسلمين ، والتحقير من شأنهم ، وتطلَّب صلفُهم وكبرياؤهم أنْ يترفَّعوا عن خطاب المؤمنين ، شأن من يُصعِّر خدَّه للناس ، ويثْني عِطْفه عنهم، وينوء بجانبه ، فعدلوا عن أسلوب الغيبة ، صوناً لأنفسهم عن مواجهة مَنْ هم دونهم في زعمهم ، وهو ضرب من الالتفات آثره القرآن الكريم لإبراز صور التعالي والغطرسة ، ونظرة الاستخفاف التي كان يرمق بها المشركون ضعفاء المسلمين ، فانظر كيف يضيع هذا الغرض لو قال: «لو كان خيرًا ما سبقتمونا إليه»؟ وكيف يفسد هذا المعنى لو قلت: «وقال الذين كفروا عن الذين آمنوا»؟ لأنَّه يصبح نوعًا من الحديث عنهم، لا لهم ، مع أنَّ الآية حوار بين المسلمين والمشركين ، واللام هنا لاتزال تحمل معنى اختصاص قولهم بمن وجه إليهم ، وإنْ سمَّاها أبوحيان «لام التبليغ» ، وهي فرع عن الاختصاص. قال: «واللام للتبليغ، ثم انتقلوا إلى الغيبة في قولهم (ما سبقونا) ، ولو لم ينتقلوا لكان الكلام (ما سبقتم إليه)» [1].

وتأمَّل قوله تعالى يحكي الحوار الذي يدور بين الضالين والمضلين في النار: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٨) ، فليس قول الضالين خطابًا لله تعالى حتى تكون اللام بمعنى «عن» ،

(١) النهر الماد من البحر ٨/ ٥٨.

وإنَّما هو حوار دار بين الضالين والمضلين ، بدليل رد الفريق الآخر عليهم كما حكاه الله: ﴿وَقَالَتْ أُولَـٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾(الأعراف: ٢٩) ، حيث جاء بصيغة الخطاب للضالين ، ولو كان قول الأولى موجهًا إلى الله تعالى لجاء رد المضلين: «فما كان لهم علينا من فضل» ، وسرُّ عدول الضالين عن الخطاب إلى الغيبة في قولهم ﴿رَبَّنَا هَـٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ ، دون أن يقولوا: «أنتم أضللتمونا» ، تعبيرًا عن مرارة الحقد عليهم ، ممَّا جعلهم يصرخون بهذا الدعاء ، متمنين مضاعفة العذاب لهم تشفيًا منهم وانتقامًا، فيما يتضمَّن ضربًا من الاعتذار إلى الله عن ضلالهم وكفرهم ، ومن ثَمَّ كان تجاهلهم لهم نوعًا من التسجيل عليهم ، وادِّعاء أنَّه لا حجة لهم يردون بها عليهم ، وأنَّهم لا يملكون إلا التسليم بجريمة غوايتهم ، إلى جانب ما يوحي به من اشمئزاز وكراهية لخطابهم ، فهم الموتورون المضللون ، وعدولهم عن خطابهم هو عدول صاحب الحجة الواثق من أنَّ خصمه عاجز عن إيجاد مبرر لسلوكه وجريمته ، وكأنَّه يقول للحاضرين: اسألوه إنْ كان يستطيع أنْ يجيب. ألا ترى كيف جاء رد الأولى بالخطاب موجهًا إليهم ، نافيًا ذلك الفضل عليهم بكونهم تابعين لا متبوعين ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾.

إنَّهما إذن طريقتان في الأداء من طرق الحكاية في لسان العرب ، وضع الله تعالى كُلاً منهما في موضعه الملائم له.

وانظر إلى هذا الأدب النبويِّ الكريم في حديث نوح – عليه السلام – وكيف كان عُدولُه عن الخطاب إلى الغيبة مثالاً للأدب الجمِّ واحترام

المشاعر. قال نوح ردًّا على قول قومه ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾(هود: ٢٧) ، قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴾(هود: ٣١) ، فقد كره توجيه الخطاب إليهم ، حتى ولو كان ذلك في صورة النفي؛ لأنَّه ممَّا يجرح شعور قوم أقبلوا على الله تعالى ، وآمنوا بدينه حين كفر الناس ، وذلك لون من الأدب القرآني في الخطاب والمحاورة.

وبعيدًا عن طرق الحكاية في القول فقد جاءت اللام مع فعل من شأنه أنَّ يتعدَّى بـــ«عن» ، في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ (البقرة: ١٧٨) ، فالفعل «عُفِي» من شأنه أنْ يتعدَّى بـــ«عن» دالاً على مجاوزة الذنب وترك الأخذ على الجناية ، ولكن القرآن عدل إلى اللام.

وذلك لأنَّ هذا العفو استثناء من قاعدة القصاص الذي كتبه الله على المؤمنين ، فهو منحة خاصة أهديت للقاتل من ولي دم القتيل ، وأيُّ منحة؟ إنَّها روح استوجبت الإزهاق ، ودم وجب أنْ يراق ، فكانت اللام رسولاً يحمل إليه البشرى باختصاصه بالعفو بعد استحقاقه للقتل ، وهو جميل يطوِّق جيد المعفو عنه ، ويدفعه إلى رد الإحسان بمثله ، وفي التعبير ﴿ مِنْ أَخِيهِ ﴾ ما يُنكِّر بواجب الأخوة ، وما يفرضه من التعاطف وصيانة الدماء. قال الرازي: «(عُفِي) يتعدَّى بـــ(عن) لا باللام ، فما وجه قوله ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ ﴾ ؟ الجواب: إنَّه يتعدَّى بـــ(عن) إلى الجاني وإلى الذنب ، فيقال: عفوت عن فلان ، وعن ذنبه. قال الله تعالى ﴿عَفَا

﴿ ٱللَّهُ عَنكَ ﴾ ، فإذا تعدَّى إلى الذنب قيل: عفوت لفلان عمَّا جنى ، كما تقول: عفوت له عن ذنبه ، وتجاوزت له عنه ، وعليه هذه الآية ، كأنَّه قيل: فمن عُفِي له عن جنايته ، فاستغنى عن ذكر الجناية» (١).

وسواء أكان من الاكتفاء أو الحذف أم لا فإنَّ اللام تظل تحمل دلالتها على الاختصاص ، وتُذكِّر بروح الأخوة ، وغرس بذور التسامح والمودة في النفوس ، والنزول عن الحقوق في سبيل تقوية أواصر الحب بين المؤمنين ، وتُذكِّر المعفوَّ عنه بدَيْن العافي الذي طُوِّق به.

***

اللام بين الزيادة وحرف الابتداء

نادرةٌ تلك المواضع التي قيل فيها بأنَّ اللام تنوب عن حرف الابتداء؛ لبُعد ما بين الحرفين في المعنى ، ولم أجد سوى موضعين من كتاب الله صُرِّح في أحدهما بهذه النيابة ، واحتمل الكلام عن الآخر مثل هذا القول.

الأول: قوله تعالى ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ (الأنبياء:١) ، حيث قال الزمخشريُّ: «هذه اللام لا تخلو من أنْ تكون صلة ، أو تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم ، كما تقول: أزف للحي رحيلهم، الأصل: أزف رحيل الحي» (٢).

ففسَّر صاحب الكشف كونها صلة على أنَّها بمعنى «من» فيما نقله عنه الألوسي: «وفي الكشف: المعنى على تقدير كونه صلة لاقترب:

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٥/ ٥٣.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٦١.

اقترب من الناس؛ لأنَّ معنى الاختصاص وابتداء الغاية كلاهما مستقيم يحصل به الغرض» [1].

وسواء أكان هذا ما يعنيه الزمخشريُّ أم لا ، فإنَّ اللام هنا بمعنى الاختصاص فيها تنادي بمزيد من التخويف ، والمبالغة في النكير باقتراب موعد الحساب والجزاء ، شأنها في ذلك شأنُ اللام في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (الكهف: ٧٥) ، بعد أنْ تكررت من موسى – عليه السلام – المعارضة ناقضًا ما قطعه على نفسه من الصبر على ما يراه ، وعدم مفاتحة العبد الصالح فيما يفعله حتى يفاتحه هو ، مع أنَّ هذه الآية سبقت بدون زيادة «لك» حين جاءت ردًّا على أول معارضة للخضر – عليه السلام. قال الخطيب الإسكافي: «للسائل يسأل عن زيادة (لك) في الثانية ، وإخلاء الأولى منها ، والجواب أنْ يقال: إنَّه في الأولى: لما قرر موسى – صلى الله عليه وسلم – وذكره ما كان قد قدم القول فيه من أنَّ الصبر على ما يشاهده منه يثقل عليه ، فقال: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ، وهذا معناه في غالب ظني أنَّك تعجز عن احتمال ما ترى حتى تبادر إلى الإنكار ، فلمَّا رأى قتل الغلام ، وعاد إلى الإنكار ، أكد التقرير الثاني بقوله (لك) ، كما يقول القائل: لك أقول ، وإياك أعني ، فيقدم لك وإياك، ولو قال: أقول لك ، وأعنيك بكلامي ، لاستويا في المعنى ، إلا في تأكيد الخطاب بالتقديم ، فكأنَّه قال: ألم يكن خطابي لك دون من سواك ، وهذا وجب في الثاني لا في الأول ، الذي لم تتأكد حجة الخضر فيه – عليه

---

(١) روح المعاني ١٧/ ٢.

السلام – كتأكُّدها في الثانية» [1].

مثل هذا الذي قاله الإسكافي في زيادة «لك» هو الغرض من زيادة اللام ، فرقًا بين قوله تعالى ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ ، وقولك: «اقترب حساب الناس» ، وأحسب أنَّ هذا هو الذي قصده الزمخشريُّ بتأكيد الإضافة ، وهو الأليق بكتاب الله.

وثاني الموضعين قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ (طه: ١٠٩).

فإنَّه يُفهم من كلام الفراء أنَّ تعدية «رضي» باللام و«من» سواء. قال: «﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ كقولك: ورضي منه عمله ، وقد يقول الرجل: قد رضيت لك عملك ورضيته منه» [2].

و«رضي» تعدَّى في القرآن بنفسه مثل: ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ (النمل: ١٩) ، وتعدَّى بـ«عن» ، كقوله ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (المائدة: ١١٩) ، وتعدَّى بالباء ، كقوله ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ (التوبة: ٨٧) ، وتعدَّى بـ«من» في قوله ﴿ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ (النساء: ٢٩).

أمَّا قوله تعالى ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ ، فقد تعدَّى الفعل بنفسه إلى القول، وجاءت اللام فيه مؤذنة بالاختصاص ، وهو ما يستدعيه مقام

---

(١) درة التنزيل ٢٨٥.
(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٦.

المأذون له بالشفاعة ، ومنزلة الحظوة عند ربه ، حيث يسمع لشفاعته حيث لا شفاعة لغيره ، ويستجيب له حين لا يستجيب لسواه ، وهو عين الكمال وغاية الرضا ، لذا جاءت اللام مؤكدة اختصاصه بهذا الشرف ، وهو ما يفوت لو قلت: «ورضي قوله».

وهذه اللام قريبة من اللام في قولك: نصحت لك ، دون نصحتك ، «وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة ، وأنَّها وقعت خالصة للمنصوح له ، مقصودًا بها جانبه لا غير» [1].

لم يجئ النصح في الكتاب العزيز متعديًا بنفسه ، وإنَّما جاء متعديًا باللام؛ لأنَّ الناصح في مواضعه كلها أخلص النصيحة للمنصوح ، حقيقةً، كما جاء على ألسنة الرسل: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ (الأعراف: ٧٩) ، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَلَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ (الأعراف: ٦٢) ، ولاشك في إخلاص المرسلين النصيحة لقومهم واختصاصهم بها.

أو ادعاءً ، كما جاء على لسان إبليس استمالةً لآدم وزوجه ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٢١).

ومثله تعدية الشكر بنفسه تارة ، وباللام تارة أخرى. يقول البطليوسي وهو يعدِّد أنواع الزيادة في الحروف: «أنْ يحدث بزيادة الحرف معنى لم يكن في الكلام ، وهذا النوع أظرف الأنواع الأربعة وألطفها مأخذًا ، وأخفاها صنعةً ، ومن أجل هذا النوع أراد الذين أنكروا هذا الباب أنْ يجعلوا لكل معنى غير معنى الآخر ، فضاق عليهم

---

(١) الكشاف ٢/ ٨٦.

المسلك، وصاروا إلى التعسف ، وهذا النوع كثير في الكلام ، يراه من منحه الله طرفًا من النظر ، ولم يمر عليه معرضًا عنه ، فمن ذلك قولهم: شكرت زيدًا ، وشكرت لزيد ، يتوهَّم كثير من أهل هذه الصناعة أنَّ دخول اللام ها هنا كخروجها ، كما توهَّم ابن قتيبة ويعقوب ، ومن كتبه نقل ابن قتيبة ما ضمنه هذا الباب ، وليس كذلك؛ لأنَّك إذا قلت: شكرت زيدًا ، فالفعل متعدٍّ إلى مفعول واحد ، وإذا قلت: شكرت لزيد ، صار بدخول اللام متعديًا إلى مفعولين؛ لأنَّ المعني: شكرت لزيد فعله ، وإنَّما يترك ذلك الفعل اختصارًا ، ويدلُّك على ذلك ظهور المفعول في قول الشاعر:

شَكَرْتُ لَكُـــــمْ آلاءَكُمْ وَبَلاءَكُمْ

وَمَا ضَاعَ مَعْرُوفٌ يُكَافِئُهُ شُكْرُ»[1].

ولمَّا كانت زيادة اللام تدلُّ على اختصاصه بالشكر جاء أمر الله تعالى بها في قوله ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة: ١٥٢) ، وقوله ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ (لقمان: ١٢) ، ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ (سبأ: ١٥) ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٧٢).

***

(١) الاقتضاب ٢/ ٣٠٨.

لام العـــاقبة

يقول ابن فارس: «ومن اللامات لام العاقبة ، قوله جل ثناؤه: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ، وفي أشعار العرب ذلك كثير:

جَاءَتْ لِتُطْعِمَهُ لَحْمًا وَيَقْجَعَهَا ... بِابْنٍ فَقَدْ أَطْعَمَتْ لَحْمًا وَقَدْ فَجَعَا

وهي لم تجئ لذلك ، كما أنَّهم لم يلتقطوه لذلك ، لكن صارت العاقبة ذلك..

ومن الباب قوله جل ثناؤه: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ ، أي: آتيتهم زينة الحياة الدنيا ، فأصارهم ذلك إلى أنْ ضلوا» [1].

والظاهر من تسميته هذه اللام «لام العاقبة» ، أو «الصيرورة» ، أنَّ القائلين بها يخرجونها عن معنى الاختصاص الذي هو أصل معناها ، ويرونها غير لام التعليل؛ لأنَّ لام التعليل تدخل على ما هو غرض لفاعل الفعل ، ويكون مترتبًا على الفعل ، وليس في لام الصيرورة إلا الترتيب فقط» [2].

وقد كان الزمخشريُّ أقرب إلى حس هذه اللغة حين جعل هذه اللام للتعليل المجازي ، وإنْ لم يفصح عن سر هذا التجوُّز في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (القصص: ٨). قال جار الله: «اللام في (ليكون) هي لام (كي) ، التي معناها التعليل ، كقولك: جئتك لتكرمني سواء بسواء ، ولكن معنى التعليل فيها وارد على

---

(١) الصاحبي ١٥٢.
(٢) انظر الفوائد في مشكل القرآن ١٣٨.

طريق المجاز دون الحقيقة؛ لأنَّه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أنْ يكون لهم عدوًّا وحزنًا ، ولكن المحبة والتبني ، غير أنَّ ذلك لمَّا كان نتيجة التقاطهم له وثمرته ، شُبِّه بالداعي الذي يفعل الفاعلُ الفعلَ لأجله ، وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء ، والتأدُّب الذي هو ثمرة الضرب في قولك: (ضربته ليتأدب) ، وتحريره أنَّ هذه اللام حكمها حكم الأسد ، حيث استعيرت لما يشبه التعليل ، كما يستعار الأسد لما يشبه الأسد» (١).

وبالرغم من أنَّ البلاغيين والمفسرين تعلَّقوا بكلام الزمخشريِّ في الحديث عن استعارة الحروف ، ودار بينهم جدل طويل حول تفسير هذه الاستعارة ، ومفهوم الزمخشريِّ لها ، فإنَّهم لم يتعرضوا لسرِّ هذا التجوُّز ، ولماذا لم يقل: «فالتقطه آل فرعون فكان لهم عدوًّا وحزنًا»؟

وأرى أنَّ النظم الحكيم أراد إظهار قدرة الله الباطشة في تسخير فرعون وملئه – وهم الذين أسالوا دماء جيل من أطفال بني إسرائيل رغبة في الوصول إلى دم موسى – لإرادته تعالي ، فيلتقطونه وكأنَّهم يعلمون أنَّهم يسيرون إلى نهايتهم المحتومة ، ويضعون نهاية ملكهم بأيديهم ، كما يتجرَّع المنتحر السُّمَّ بيده لإنهاء حياته ، وهذا إيراز لكمال قدرة الله تعالى ، ونفاذ إرادته. وفي هذا الأسلوب ما فيه من التهكُّم والسخرية على غرار قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، وقوله ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾.

وقد جسَّد الألوسي كل هذا المعنى في قوله: «فيه استعارة

---

(١) الكشاف ٣/ ١٦٦.

تهكمية»[1].

ثم انظر كيف جسَّدت هذه اللام التي أسموها «لام العاقبة» روح الاستسلام لأمر الله تعالى ، والرضا بقضائه ، والوعي بحكمة الله تعالى في استدراج خلقه ، ونفاذ علمه وإرادته ، وذلك في قول موسى – عليه السلام – : ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ (يونس: ٨٨) ، وهي اللام التي عدَّها ابن فارس من لامات العاقبة كما مرَّ.

ولو قيل: «فضلوا عن سبيلك»، بدلاً من ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ ، ما عبَّرت عن أدب موسى الرفيع في خطابه لربه ، تسليمًا بأنَّ ذلك جرى من الله تعالى بنفاذ علم وحكمة قدَّرها ، استدراجًا لهؤلاء القوم ، وإملاءً للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته ، فاللام هذه تحمل في طياتها التسليم بإرادة الله وقضائه النافذ فيما صار إليه فرعون وملؤه من ضلال وإضلال.

هذه الإرادة عينها ، وذلك المكر الإلهيُّ ذاته ، الذي يعلو فوق مكر الماكرين ، هو ما تُجسِّده لام التعليل المجازي في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۚ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(الأنعام: ١٢٣).

انظر كيف يسخر القرآن الكريم من هؤلاء الذين يُبيِّتون المكر ، ويُحكِمون الكيد ، ويتآمرون على دعاة الخير ، وكيف يسخرهم الله تعالى

---

(١) روح المعاني ٢٠/ ٤٦.

لهذا الذي دبَّروه وصنعوه لغاية أرادها ، فإذا هم يمكرون بأنفسهم ، ويحفرون حُفَر الشرِّ بأيديهم ليقعوا فيها؟ فأيُّ سخرية هذه من ماكرٍ هو ممكورٌ به ، وواضع السُّمِّ لغيره يُجْبَر على تجرُّعه؟

هذه هي اللام التي أسموها «لام العاقبة» ، وما أبعد ذلك عن نهاية رسمتها يد القدرة منذ البداية ، ونفذ فيها علم الله تعالى قبل بدئها ، وكم أحسن البصريون حين أنكروا هذه اللام وأرجعوها إلى «لام العلة». قال ابن هشام: «وأنكر البصريون ومَنْ تابعهم لام العاقبة. قال الزمخشريُّ: والتحقيق أنَّها لام العلة ، وأنَّ التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة» (١).

وهو ما كان متوقعًا من الزمخشريِّ ، غير أنَّني وجدت في كشَّافه ما يفيد بوجود هذه اللام عنده ، حيث قال في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ (الأنعام: ١٣٧) – قال: «فإنْ قلتَ: ما معنى اللام؟ قلتُ: إنْ كان التزيين من الشياطين فهي على حقيقة التعليل ، وإنْ كان من السَّدَنة فعلى معنى الصيرورة» (٢).

فهل قصد بالصيرورة «لام العاقبة» التي قال بها الكوفيون من النُّحاة؟ أم أنَّه قصد بها التعليل المجازي ، بدليل مقابلتها بحقيقة التعليل؟ وإلى الثاني أميل.

---

(١) مغني اللبيب ١/ ١٧٩.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٤.